الأنساق الدّلالية

1. تعريف النّسق الدال

يعرّف لوكومتسيف النسق السيميوطيقي باعتباره «لغة دلائل» — لغة نمط من الدلائل أو عدة أنماط — مضاعفة بنسق من القواعد التي تتحكم في تأليفها في اللحظة التي يُعَدُّ فيها نص سيميوطيقي (1).

بينما ينطلق روسي — لاندي في تعريفه للنسق الدلالي من اعتبار التواصل منقسما الى عدة قطاعات تواصلية، ويُسَمّي كل قطاع تواصلي «نسق دلائل». وأنساق الدلائل، عنده، مجموعة جدلية مكونة من أنواع سننية ومن رسائل تتحقق في الواقع بين مرسلين ومتلقين في ظروف ملائمة. وتحتوي هذه الأنساق، في طيها، على قواعد استعمالها الخاص (2).

أما كراجر G.G.Granger فيستعمل، بدل النسق السيميوطيقي ونسق الدلائل، النسق الرمزي. والنسق الرمزي مجموعة من الدلائل المعطاة فعليا أو القابلة فعليا للبناء. ويؤكد هذا التعريف، في رأيه، الطابع المغلق لمجموع دلائل النسق. أما إذا بقيت قائمة النسق مفتوحة فإن الأمر لا يتعلق بنسق رمزي وإنما بتجميع لدلائل. غير أن هذا الانغلاق لا يلغي انفتاحا ما للنسق إذ من الممكن استحداث دلائل. إلا أن مثل هذا الاستحداث يخضع لبعض قواعد البناء التي تُسَلِّمُنَا الى قيد قابلية البناء الفعلية (3).

إن نسق الدلائل، إذن، مجموعة من الدلائل تنسج فيما بينها مجموعة من العلاقات الاختلافية والتعارضية حتى تقوم بتأدية وظائف دلالية متميزة بين مرسل ومتلق. ولتأدية هذا

(1) Quelques fondements de la Sémiotique générale in systèmes de signes ouv. collectif. P. 237

(2) Linguistics and Economics P.10 —11

(3) Langages et épistémologie P.103

Scanné avec CamScanner

الدور المتمحور حول نقل رسالة معينة لابد من أن تخضع هذه الرسالة لقوانين وقواعد تركيبية (= تأليفية) وفق شروط مقامية خاصة.

ومن جهة ثانية، فإن هذه المجموعة من الدلائل المعطاة فعليا لابد، لكي تشكل نسقا، من أن تكون معلقة؛ إذ لا ينبغي أن تحتفظ بها دلائل أخرى ذات طبيعة تغاير طبيعتها — وبالتالي لا تقيم معها أية علاقة داخلية — وذات قواعد تأليفية مغايرة لقواعد تأليف الأولى.

وإذن، فالدلائل تُرتب داخل أنساق معينة متغايرة معلقة مثل نسق الكتابة ونسق الموسيقى ونسق الرقص... الخ. إلا أن انغلاق النسق لا يعني، بأي حال من الأحوال، عدم إمكان صنع دلائل أخرى من الممكن إدراجها ضمن نفس النسق شريطة أن تخضع صنعها لنفس القواعد التي بُنيت على أساسها دلائل النسق المعني. وما عدا هذا الامكان، فإن قائمة الدلائل ينبغي أن تُغلق وإلا فإننا لن نكون بإزاء نسق وإنما بإزاء ركام من الدلائل التي تم تجميعها دون أي احترام لقواعد استعمالها الخاص بها.

2. انقسام الأنساق الدّلالية

تنقسم الأنساق الدلالية الى قسمين كبيرين : أنساق دلالية طبيعية وأنساق دلالية اجتماعية. والأنساق الدلالية الطبيعية هي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة. وتتسم هذه الأنساق بكونها غير مؤسسية إلا أن الانسان وظفها داخل مملكة الدلائل أي أنه أسند إليها دلالات مخصوصة. أما الأنساق الدلالية الاجتماعية فهي «في نفس الآن الأنسنة وكل ما نتج عنها أي أنها ما قبل التاريخ الانساني والتاريخ الانساني منظورا إليه من زاوية السيميوطيقا العامة» (4). إن الأنساق الدلالية الاجتماعية هي تلك الأنساق التي تتميز بكونها مؤسسية وبكونها من نتاج عمل الانسان.

وتنقسم الأنساق الدلالية الاجتماعية إلى أنساق دلالية اجتماعية لفظية Verbal وأنساق دلالية اجتماعية غير لفظية. والأنساق الدلالية اللفظية هي : «تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصياتها المتنوعة وإعدادات مثل الأنواع السّننية. وتقوم هذه الأنواع السننية على التمييزات التي يحدثها الانسان في مادة الصوت» (5). والمقصود باللغات، عند روسي — لاندي، الحالات الخاصة للكلام أي للقدرة الانسانية على استعمال أنواع سننية متسقة للتلفظ بأصوات قصد أغراض تواصلية وتعبيرية عادية (6). ومن الواضح، أن روسي — لاندي يقصي من هذا النوع من الأنساق اللغة الشعرية واللغات التقنية واللغة الطقوسية واللغات الايديولوجية المختلفة ولغة الرياضيات. وعلاوة على دلك، فإن مفهوم الأنساق اللفظية،

(4) Linguistics and Economics P 12

(5) نفسه ص 13

(6) نفسه نفس الصفحة

Scanné avec CamScanner

عنده ، لا يأخذ بعين الاعتبار التمايز بين ماهو منطوق وما هو مكتوب (7) ، فهذا المفهوم يشملهما معا.

أما الأنساق الدلالية الاجتماعية غير اللفظية فهي تلك التي «لا تستعمل أنواعا سننية قائمة على أصوات متلفظ بها ، ولكنها تستعمل أنواعاً سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء ، هاته الأشياء الأخرى التي سيُسميها بالأجسام bodies هي إما أشياء توجد قبليا في الطبيعة وإما أن الانسان أنتجها لغايات أخرى ، وإما أنها أنتجت بغرض أن تستعمل بوصفها دلائل أو أنها استعملت باعتبارها دلائل في نفس الفعل الذي نتجت فيه (8).

وتتكون هذه الأنساق الدلالية غير اللفظية من :

1 — حركات الأجسام Kinesic وأوضاع الجسد postural : التواصل بالاشارات ، تعابير الوجه وتعابير أخرى وأوضاع الجسد...

2 — الاشارات الدالة على القرب proxemic المتعلقة باستعمال الانسان للمكان.

3 — اللمسي Tactile والشمي Olfactory والذوقي gustative البصري visual والسمعي auditory الى درجة نستطيع فيها إبعاد أنساق دلالية غير لفظية أخرى قائمة أيضا على السمع والبصر.

4 — الشيئي objectual أي الأنساق القائمة على أشياء يروضها الانسان وينتجها ويستعملها : ثياب ، حلي ، زخارف ، أدوات مختلفة ، آلات ، بناءات من كل نوع ، موسيقى ، فنون رمزية..

5 — المؤسسي Institutional : كل أنواع التنظيمات الاجتماعية ، وبالتحديد كل الأنساق المتصلة بروابط القرابة والطقوس والأعراف والعادات والنظم القضائية والديانات والسوق الاقتصادي... (9).

وبخصوص هذه الأقسام ، يلاحظ روسي — لاندي أن الأقسام الثلاثة الأولى (حركات الأجسام... والاشارات الدالة على القرب... واللمسي والشمي والذوقي والسمعي والبصري) تحيل على جسم الانسان أي أنها تحيل على العضوية الانسانية. أما الأقسام الباقية ، فتحيل على أشياء خارجة عن العضوية الانسانية.

ونخلص من هذا التمييز إلى أن الأقسام الثلاثة الأولى أنساقٌ دلالية عضوية وأن الأقسام الباقية أنساق دلالية أداتية Instrumental ، ذلك أن الانسان ، في الحالة الأولى ، يقوم بسلوك معين ، أما في الحالة الثانية ، فإنه يقوم بسلوك بواسطة شيء (10).

(7) نفسه. نفس الصفحة.
(8) نفسه. ص 13 — 14
(9) نفسه. ص 14
(10) نفسه. نفس الصفحة.

Scanné avec CamScanner

أما أمبرطو إيكو ، فإنه يرى في الأنساق الدلالية ، مهما كانت أقسامها ، ثمانية عشر نسقا. وقد انطلق ، في هذا التصنيف ، من أنساق التواصل التي تبدو ، في الظاهر ، أكثر «طبيعية» وأكثر «عفوية» — أي «أقل ثقافيا» — وصولا الى العمليات الثقافية الأكثر تعقيدا. وهذه الأنساق هي :

1 — سيميوطيقا الحيوان Zoosémiotique ويخص الأمر السلوكات المتصلة بالتواصل داخل الجماعات غير الانسانية ، وبالتالي الجماعات غير «الثقافية».

2 — العلامات الشمية Olfactifs كالعطور مثلا.

3 — التواصل اللمسي Tactile كالقبلة والصفعة...

4 — سنن الذوق ويتعلق الأمر بممارسة الطبخ.

5 — العلامات المصاحبة لما هو لساني para-linguistique : كأنماط الأصوات في ارتباطها مع الجنس والسن والحالة الصحية... ومثل العلامات المصاحبة للغة كالكيفيات الصوتية (علو الصوت ، مراقبة العملية النطقية...) وكالتصويتات (الأمزجة الصوتية : الضحك والبكاء والتنهدات..).

6 — السيميوطيقا الطبية : علاقة الأعراض بالمرض.

7 — حركات الأجسام Kinésique والاشارات الدالة على القرب proxémique ويتعلق الأمر باللغات الاشارية gestuels.

8 — الأنواع السننية الموسيقية.

9 — اللغات المُشَكْلَنَة formalisés مثل الجبر والكيمياء وسنن الشفرة Morse....

10 — اللغات المكتوبة والأبجديات المجهولة والأنواع السننية السرية.

11 — اللغات الطبيعية (مثل اللغة العربية والفرنسية والانجليزية)...

12 — التواصل المرئي Visuelle : مثل الأنساق الخطية واللباس والاشهار...

13 — نسق الأشياء : مثل المعمار وعامة الأشياء.

14 — بنيات الحكي.

15 — الأنواع السننية الثقافية مثل آداب السلوك والتراتبيات والأساطير والمعتقدات الدينية القديمة...

16 — الأنواع السننية والرسائل الجمالية : علم النفس والابداع الفني ، والعلاقات بين الأشكال الفنية والأشكال الطبيعية...

17 — التواصل الجماهيري : مثل علم النفس وعلم الاجتماع والبيداغوجيا ومفعول الرواية البوليسية والأغنية.

Scanne avec CamScanner

18 — الخطابة : La rhétorique (11).

وإذا كان أمبرطو إيكو قد فصل في الأنساق الدلالية وأفاض في تفريعاتها ، فإن مدرسة طارتو Tartu السوفياتية قد اقتصرت على تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين هما : أنساق مُنَمْذِجة أولية Systèmes modelants primaires وهي الأنساق اللفظية اللسانية ، وأنساق مُنَمْذِجة ثانوية Systèmes modelants secondaires مبنية على الأنساق الأولى. وتُصنَّف ضمن هذه الأنساق الثانوية الدين (والأساطير) والشعر (وعموما الفنون) والملامح المميزة للثقافة (12).

(11) La structue absente P 14 —19

(12) Szepe et Voigt Alternatives sémiologiques . in Recherches Internationnales à la lumiere du

Scanné avec CamScanner